وضعنا النقدي ، وضعنا الثقافي

عزيز الشرقاوي

1) ـ أكيد أن مشاكل الثقافة والمثقفين في المغرب والعالم العربي كثير ما طرحت ونوقشت من طرف مختلف الاوساط الثقافية . ويمكن القول نتيجة لذلك أن أكثر الاطراف قد حددت وجهة نظرها بهذه الدرجة والكيفية أو تلك حول هذه القضية الهامة من قضايا التحرر والتقدم المطروحة على الصعيدين الوطني والعربي بكل الحـــاح .

ان هذا يطرح بالضرورة تجاوز هذه المرحلة في توضيح المواقف الى مرحلة جديدة يميز فيها المثقفون التقدميون الخطوط الرئيسية لهذه المواقف واصولها الاجتماعية الطبقية وابعادها السياسية ، مع الكشف الصارم بين من يجيب فيها عن الاسئلة الحقيقية المطروحة فعلا ومن يجيب عن أسئلة مزيفة ومصطنعة ، وبالتالي التقدم نحو برامج تكتلات ثقافية مرحليـــة ودائمـــــة .

ان هذا التقديم لن يكون بدون فائدة اذا نحن رأينا بأن هذه الملاحظات حول الثقافة في المغرب لا تجيب على أسئلته ، ذلك لان هناك بعضا مـن قضايا الثقافة عندنا ما زالت بعد لم تطرح ، أوانها ـ على الاقل ـ لم تطرح بشكل جيد وموضوعي ، ولذلك فان هذا المقال سيحاول الى جانب الاجابة عن بعض الاسئلة ، طرح أخرى على مثقفينا التقدميين بالمغرب لمزيد مناقشتها وابداء الآراء حولهـــا .

مسبقا علينا أن نطرح سؤالا : ما جدوى طرح المشكل الثقافي بالنسبة للمغرب والبلاد العربية التي تعيش مشاكل وقضايا تتجاوز الثقافة بالدرجة الاولـــــى ؟

حقا ليس جديدا ـ الا على البعض ـ القول بأن أحد المظاهر البارزة للصراع الطبقي في المغرب والعالم العربي بين قوى التقدم (الشعب) وقوى الرجعة هي الصراع الايديولوجي ـ الثقافي . والمسالة الثقافية ـ بالضبط لا تأخذ أهميتها الحاسمة الا من هذه الوجهة لا من غيرها ، كأداة طليعية ـ أحيانا ـ في هذا الصراع الذي لن يحل الا بانتصار الطبقات الثوريـــة

ـ بالتالي ـ على ثقافة القهر والاستلاب الاقطاعية الاستعمارية والبورجوازية كـــذلـــك .

ان كون الثقافة السائدة دائما هي ثقافة الطبقات السائدة اقتصاديـــا وسياسيا كحقيقة عامة ، يرغمنا على الاعتراف بأن مجمل الثقافة المنتشرة والرسمية ذات السيادة في مجمل وطننا والبلاد العربية هي ثقافة رجعية استعمارية أو بورجوازية محافظة من خلال مختلف مؤسسات الثقافـــة الجماهيرية : تعليم ، اعلام ، صحافة ، منشورات . . . الـــخ تلعــب فيها تقريبـــــا .
طبقات الاقطاع والبورجوازية ومعهما الامبريالية الدور الاول والاخيـــر

وان بعض النشاز الذي يتخلل من حين لآخر نغمات هذه الجوقة المسلطة بالقهر على فكر ووجدان الجماهير والذي يصدر عن بعض الاوساط البورجوازية المعارضة لا تكتسي في الغالب الا شرط (هرموني) نجد مقدماته وشروط وجوده في صلب أسس الثقافة السائدة التي لا تحس ضررا ـ بل علـى العكس ـ من تقديم شروط ووسائل ثقافة مكملة ومتممة للثقافة السائدة (تناقضها الداخلي وجدليتها الخاصة) ومبررة للوضع بشكل خداع . هذه الثقافة تسمي نفسها غالبا (معارضة) أو حتى (وطنية) ويسميها الناس الواعون اصلاحية وبورجوازيـــة .

ان نقد هذا العالم ، عالم القهر والاستلاب اما أن يكون شاملا أو لا يكون . والجماهير خلال نهوضها التاريخي وتقدمها الثوري لنقد وتغيير عالمها من أسسه وكل هياكله ومؤسساته (اقتصادية ـ سياسية ـ اجتماعية ـ ثقافية . . . الـــخ) حتى لا نترك فيه شيئا بدون قلب أو كنس أو تعديل وتجديد ، لا تستطيع تحقيق ذلك الى النهاية ودون وقوعها في ايديولوجيـــة اصلاحية بورجوازية اذا هي لم تحطم أولا ذلك العالم من الخزعبـــــلات والمقدسات الصنمية . . . الـــخ ، المنصوب بداخلها ، بدخيلة كل فرد فيها . لتبرير وقبول الواقع الراهن بمؤسساته وهياكله . انه بقدر ما هو صحيح تماما ان أفكار وثقافة التقدم حالما تمتلكها الجماهير فانها تتحول الى قوة مادية . صحيح كذلك ان سيادة ثقافية رجعية وسط الجماهير لا يساهم في تأخير مسيرتها فقط ، بل ويساهم مع اعداء التغيير في عرقلتها . ان عالم القهر المادي ينعكس ثقافيا في نفسيات الجماهير ، وما لم تحطم الجماهير أولا انعكاسه الزائف هذا والملقن لها ، المحفوظ بدخيلتها فانها لن تستطيع أن تحطمه بخارجها كواقع مادي .
من هذا ومن هذا بالضبط يأتي تفسير وفهم أهداف وأدوار الثقافة ،

ومؤسسات الثقافة الرجعية السائدة : (اقناع) الناس بأن ليس في الامكان ابدع مما هو كائن عن طريق بعث سفراء فوق العادة لتمثيل (ما هو كائن) بدخيلـــة الجماهيـــر .

ومن هنا ، ومن هنا بالضبط تاتي اهمية دور النضال على الصعيد الثقافي بالنسبة للتقدميين العرب . من جهة كنس الخزعبلات وفضح المؤسسات الزائفة والرجعية المبثوثة في أذهان ونفسيات الجماهير لخداعها عن ظروفها ومحولة (من الحول) نظرتها الى واقعها المرفوض ، ومن جهة أخرى ، وانطلاقا من نفس أسس ذلك النقد الذي لن يكتسب تقدميته الا بشموليته وجذريته ، البدء من بناء ثقافة جديدة شعبية وديمقراطية من اجل الانسان العربي وتقدمه .

اذا اتضح الهدف ، اتضحت تبعا لذلك الوسائل والادوار والادوات التي عليها أن تكون من الشعب والى الشعب أو لا تكون ، مستخلصة كل قيمها ومضامينها وأشكالها منه وتملكنا لاول مرة الرؤية الواعية والكفيلة بتمييز القضايا والاسئلة الصحيحة الواقعية والهادفة من الاسئلة الزائفة والمضللة .

2) ـ انه بالرغم من كون العديد من القطاعات الاجتماعية في المغرب وعلى الاخص في البادية (الجبال) ما زالت تحتفظ بمظاهر وأشكال ثقافية أصيلة) احتفظت ببعض قيم ومضامين وأشكال شعبية نظيفة من فعل وتاثير ثقافة الاقطاع والاستعمار وبفعل بعض الظروف التاريخية (اقتصادية جغرافية) وبالتالي فهي تقدم مادة وخميرة بل ومنبعا لا بأس بأهميته للانطلاق نحو بناء ثقافة جديدة من الشعب واليه ، فان علينا أن نلاحظ أن الرجعية تعمل حثيثا على غزوها وتشويهها لتخدعه بشتى الادوات والاساليب ليس اقلها الراديو و (الفلكلور) . و (ترسيم) المواسيم الشعبية الاحتفالية مثلا .*

3) ـ ان تسجيل كون الخط الاصلاحي قد فشل بصفة شبه نهائية ويزداد ترديه ليس في المغرب وحسب بل في مجمل الوطن العربي وباقي أمم العالم المستغل (بالفتح) لا يعني تلقائيا فشله على الصعيد الايديولوجي الثقافي . بل ان ما نلحظه في الواقع هو العكس تماما . ذلك ان الخط الاصلاحي ما زال الى حد كبير هو المنتشر في أوساط الجماهير على الصعيد الفكري ـ الثقافي . ذلك لانه اذا كان لنا أن نعتبر أن الاصلاحية قد فشلت سياسيا بفعل شروط الصراع الاقتصادي ـ الاجتماعي والدولي وبفعل ظروف تاريخية خارجية عن النوايا والارادات ، فان الفكر والثقافة رجعية كانت أم اصلاحية لا يمكن أن تزول من تلقاء ذاتها وباختيارها بل لابد من كنسها بفعل عامل واع لهذا الهدف ولضرورته وأدواته ، ولن يكون ذلك سوى من بعض أهم مهام المثقفين التقدميين .

وعندنا ما زالت هذه الوضعية هي السائدة ، وما زالت هذه المهمة هي الاولية . وانظروا من حولكم الى الاصلاحية وسيادتها ثقافيا من خلال مختلف الهيئات الثقافية والنشريات (كتب ـ مجلات ـ صحافة . .) والشخصيات

الثقافية النشيطة . الا ترون أن واجبا أوليا ما زال مطروحا على ارادات التقدم من المثقفين ، وهو أن يهدموا النخرات المهترئة من ابنية ثقافة البورجوازية الاصلاحية ، من أجل تسوية الارض وتهييئها لابنية وعمارات ثقافة الشعب الجديدة التي ستكون صلدة ومتينة بثوريتها وجميلة بطابعها الانساني الشامل .

4) ـ وماذا عن ثقافة الشعب الحاضرة ؟

ليس من المشكوك فيه قطعا أن هناك ثقافة للشعب تسجل حضورها الدائم الى جانب الثقافة أو الثقافات المكتوبة أو (الرسمية) .

وطوال التاريخ القديم أو الوسيط أو الحديث للمغرب ، اتسمت ثقافته بكونها غير مكتوبة ، وذلك لا يعني كما قد يظن البعض أنها غير موجودة أو لم يعبر عنها بشكل من الاشكال بل على العكس تماما فان الشعب المغربي (ككل الشعوب) عبر عن نفسه ورغباته بأشكال أخرى وادوات ، ليست الكتابة من بينها الا أداة جد ثانوية . وذلك ليس عيبا حين نجد شروطه في التاريخ ، (تاريخ شعب بدون دولة مركزية حقيقية يرتبط ظهور الكتابة بوجودهـا وقوتها) .

التعبير عن الذات بالكتابة ليس ميزة حضارية بالنسبة للشعوب ، حيث نجد أن الشعوب (ومنها المغرب) قد تعبر عن نفسها تماما ولكن ليس دائما بالكتابة أو حتى اللغة . الكتابة ظاهرة تاريخية وليس (حضارية) . بل انه ليمكن القول ان الاعتماد على هذه الاداة وحدها في التعبير والتثقيف ونقل القيم قد يؤدي الى تعطيل ضار لادوات تثقيفية وحواس لها اهميتها الخاصة في ميدان التعبير والثقافة .

هناك وجه آخر للمسالة وهو أن مضمون هذه الثقافة الشعبية قد يكون هو نفسه ـ الى جانب عوامل أخرى ـ عاملا في فرض هذه الاشكال التعبيرية الخاصة بالشعب والتي ليس من بينها الكتابة الا في القليل . بالاخص حين نعلم ان الشعب المغربي (والعربي) كانت نسبة الامية فيه لا تتجاوز 5 ٪ في اسوا الاحوال قبيل الاستعمار الفرنسي . ان الكل تقريبا كان يقرا ويكتب ومع ذلك لم يترك لنا تاريخنا القومي تراثا ثقافيا شعبيا مكتوبا . ولاسباب تاريخية كذلك (ظهور طبقة البورجوازية القوية ودولتها الثائرة على كل تراث الماضي الاقطاعي) استطاعت أوربا في اوائل نهضتها رغم انتشار الامية فيها ان تعطي واقعا آخر تماما .

هذه النقطة تترك في اعقابها نتيجتين احداهما ايجابية واخرى سلبية ايجابية ، وقد المحنا اليها سابقا بكون هذه الثقافة بقيت في ظروف منيعة عن التاثر بثقافة الطبقات الرجعية شبه السائدة محتفظة بمضامينهـا واشكالها . . . الخاصة . وسلبية بضياع هذا التراث الشعبي حتى الاقرب حداثة منه ، مع تسجيل كون اشكاله ما زالت هي المستعملة للتعبير فـي

الغالب رغم تعرضها لخطر الغزو كما ألمحنا سابقا كذلك .
هذه النقطة ستفيدنا في نقط ستليهـــا .

5) ـ ما هو موقع المثقفين في المغرب ، والموسومين بالتقدمية اتجاه هذه الثقافة . ليس بالتمثل بالاحرى بل على الاقل بالتعرف والكشف ؟ على اعتبار ان هذه المهمة . . تبقى دوما مطروحة بالحاح وبشكل مبدئي لكل ثقافة تدعى لنفسها الجدة والتقـــدم .

نجد انفسنا مضطرين للاعتراف بالانفصال الصارخ والبعيد بين مثقفينا وثقافة شعبهم بشكل ملفت للانتباه والتذمر معا ، وان اهم عوامل ذلـــك الوضعية الاجتماعية للمثقفين كبرجوازية صغرى تعيش حياتها الاقتصادية والثقافة الخاصة والمعلقة والاجترارية بهمومها الذاتية و (متعها) المبتذلة ... وحتى قلقها الواهم والميتافيزيقي ... الى جانب عوامل خارجية سياسية وأخرى نجدها متضمنة في مضمون وهيكل تعليمنا المتخلف الذي يهدف أول ما يهدف أبعادنا عن قيم وتراث وواقع شعبنا المقهور بخزعبلات وأوهـــام ايديولوجية طبقية وأخلاق ذاتية بذيئة ومصطنعة باشغالنا بالماضي عن الحاضر الحي وبالنموذج البرجوازي او الاستعماري الغربي عن الواقـــع الماساوي للامـــــة .

اهمية هذه النقطة تتجلى حين نعلم ان الكفيل وحده بتقديم وتنوير ثقافة الشعب الخميرية الخام ، هم المثقفون المندمجون والمتعلمون . المعلمون من الشعب واليه . وليس غير هؤلاء ـ بهذا الشرط ـ يستطيع تحقيق ذلك .

6) ـ ان ما يفسر الازمة العامة والعميقة لثقافة وآداب البورجوازية الصغرى على طول الوطن العربي وابتعادها الكبير عن التأثير والفعل فـــي الجماهير والاحداث وسير تاريخنا القومي . ليس مطلقا مشاكل تقنية من مثل ـ نشر الامية ـ انعدام الحرية . . الـــخ بل ان هذه كلها تقريبا ليست سوى نتائج لوضع وحقيقة أخرى وجوهرية بعيدة عن الوعي والتفكيـــر البورجوازيين (مصر وسوريا مثلا حيث تضعف الى حد كبير حدة مثل تلك المشاكل ، نجد ان الازمة تنسحب هي الاخرى) انها تمثل بالضبط في ابتعاد المثقفين العرب عن استيعاء (كشف ـ تمثل ـ هضم) ثقافة واشكال ثقافة الشعب ، والقفز من ذلك الى (تمثل) ثقافة الماضين أو الغرب . هـــذا الوضع المقلوب والمصطنع بفعل التاريخ والصراع الاجتماعي المتخلف هـــو عينه ما ينتج فوقية وهامشية ثقافة البورجوازية الصغرى المنتشرة وبالتالي ما يبعد المثقفين عن التعبير المعيد لتشكيل الواقع الى التبرير أو حتى تزييف الواقع ، من الابداع والخيال الخلاق المتجاوز لاوضاع الواقع الراهن الى الاجترار وتكرار الذات بشتى المساحيق الموهمة بالتجديد والتطوير وليس من ذلك شيء في الواقع الفعلـــي .

ليس هناك من مناعة وصيانة وضمانة عن الوقوع في ثقافة الذاتيات

المريضة والقلق والشكوك الشخصية المنحرفة ، سوى بالصعود نحو الشعب بقيمه وثقافته الحقيقية وليس (الفلكلورية) . سوى بتخطي التبرير نحو التعبير وكنس الاجترار من أجل الابداع والخلق وان مادة ذلك التعبير والابداع وعناصره وأشكاله لتكمن بأجلى مظاهرها في الشعب وحده ، وليس غير الشعب من يستطيع تقديمها ، واكتشافها فيه ولاجله .

7) ـ واجب نقد الاوضاع بمجملها : ومنها الوضع الثقافي العربي بشكل شامل وتقدمي ، شرطيبقى دائما ضروريا لكل تقدم وتغيير ممكن ومطروح ، فان الثقافات الرائجة على الصعيد العربي والوطن ، مطروحة أكثر لهذا النقد المخطط الهادف . اعتبر أن أشد ما يشكل عرقلة لانتشار ثقافة جديدة ، وما يكتسي صورة أكثر شيوعا وثباتا ، من الوضع الحالي هو فكر وثقافة الاصلاحية البورجوازية (الوسطى ـ الصغرى ـ بورجوازية الدوله ، ذلك لان المثقفين والجماهير اذا كانت تستطيع تمييز الوجه الطبقي والاستيلابي لثقافة الاقطاع والامبريالية الى حد ما ، وأن ترفضها بهذا الشكل أو ذلك ، فان ثقافة البورجوازية (الاصلاحية التبريرية) كثيرا ما تنسلل نحو الجماهير والمثقفين بأصباغ وأشكال متعددة مطبوعة بطابع المعارضة والنقد (الجزئي) والرفض (الميتافيزيقي أو السطحي) . وحتى مختلف الظواهر المرصية الذاتية المكتبية في الكثير لبعض صور السخط والتذمر أو الدلال والغنج . هذا التقدم الخادع الى الجماهير يوحد المعارضة الناقدة والرافضة ، خدع وما يزال ـ بفعل شروط مرحلة تاريخية معينة ـ هذه الجماهير ومثقفيها التقدميين الى حد كبير .

فاي شكل من أشكال النقد يجب ممارسته للجواب عن هذا السؤال وتأدية هذه المهمة ؟ في الواقع يمكن أن نعتبر السؤال غير موضوع على الاقل الآن بشكل جيد بالاخص اذا ما اتفقنا على الشكلين المعهودين السلبي والايجابي ، أو بالاصح : النقد المباشر المشاع عادة باسم النقد الادبي . والنقد عن طريق الممارسة : ممارسة ثقافية جديدة ، وهو الشكل الاساسي للنقد العلمي الحقيقي والعملي . يمكن اذن طرح السؤال بصيغة أخرى : أي شكل من هذين الشكلين في النقد سيحقق صفة الاسبقية في مرحلتنا الراهنة ؟ وبعيدا عن أي نوع من اللبس أو سوء التفاهم ، علينا توضيح أننا لا نقيم تعارضا ـ مبدئيا ـ بين هذين الشكلين في النقد ، وان هذا التعارض (ولا أقول التناقض) ـ ان كان موجودا حقا ـ مشروط بهذه المرحلة المعاشة التي لم تتعد كونها مرحلة مؤقتة ـ (اجتيازية) ـ ولكي نكون أكثر وضوحا نتجاوز كل هذا ونجيب عن السؤال مفصلين فيه سبب طرحه الذي قد يعتبر عند البعض مفتعلا ووهميا .

انتظار المثقفين العرب التقدميين لاشكال وبنى ثقافية جديدة (النقد بالممارسة) قبل أن ينتقدوا بشكل شامل ودائم البنى الثقافية البورجوازية

هو ما يفرض حاليا الاهتمام الجدي والدائم بالنقد (الادبي) قبل أن يبدعوا أشكالا وبنى ثقافية جديدة . لماذا ؟ لان انتظاريتهم تلك تترك آثارا سلبية ليس فقط في انتشار ورسوخ الثقافة ونقدها البورجوازيان التبريريان في الساحة العربية ، بل وبالاساس بروز وتهييء (بعث ـ بناء ـ خلق) هياكل وقيم وأشكال . . . الثقافة الجديدة المنشودة نفسها ، فكيف يقع ذلك بتقبل اكثـــر ؟

أ) ـ يعترض المثقفين الطلائعيين من أجل نقد في الممارسة تراث ضخم من أكاذيب وترهات (علمية) الدراسات الاستشراقية وما يعادلها للثقافة الشعبية العربية مع الهجوم البورجوازي الاستعماري على هذه الثقافـــة وتشويهها وافراغها من أي مضمون جماعي وأصيل بفلكلرتها من أجـــل ارضاء مزاج ونفسية البورجوازي المبتذل الغربي والعربي ، الى جانب سيل لا بأس به مـن منشورات (كتب ـ مجلات ـ صحف) ثقافية تافهـــة للبورجوازية العربية تتقدم للمثقفين في أغلبها على أنها النموذج لثقافـة نـاقدة ومعارضـــة .

ان هذا الانتاج الضخم والزائد والمعروض بشكل سائد في كل المجالات الثقافية والمهيمن السالب لتفكير المثقفين العرب هو أكبر ما يعرقل هذه المسيرة المفروضة من أجل نقد في الممارسة حقيقي وفعال .

النقد في الممارسة لا يعني تغيير (المضمون) فحسب ، مع الاحتفاظ بالاشكال السائدة للثقافة ، (أدب ، فن . .) . ان من يعتقد بذلك يكون تماما كمثل مـن يسعى عبثا ـ الـى تغيير محتوى نظـام (اقتصادي ، اجتماعي...) مع الاحتفاظ بنفس هياكله ، ان النقد في الممارسة ، كاي نقد ، اما أن يكون شاملا كليا والا فهو تبريري . ان ممارسة جديدة في الثقافة تعني خلق وابداع نمـاذج جديدة تمامـا بكـل ملامحها وقيمهـا ومضامينها وأشكالها كذلك . ان كل شكل (ادبي أو فني . .) يحمـــل في احشائه بالضرورة مضمونه الاصلي ، وهو في نفس الوقت يدل تاريخيـا على رؤية وتصور خاصين ـ تبعا للمرحلة السائد بها ـ الى الكون والانسان (بعدا ميتافيزيقيـــا) .

هذه الحقيقة تعني في ـ الممارسة ـ ان محاولة الاستعمال الساذج لاي شكل من الاشكال السائدة وحتى لاغراض ومحتويات تقدمية ، غالبا ما يحمل في ذاته أهدافا تتجاوز المستعمل ولم تطرح له على بال . وبالتالي فان الخطة تنقلب الى ضدها ، حين يصبح الشكل مستعملا للكاتب الذي يستحيل في هذه الحالة الى خادم مطيع لاغراض تتجاوزه .

ان المعادلة التي أصبحت شبـه سائدة ، والقائلة بارتباط الشكـــل بمضمونه ، وبأن كل مضمون يخلق شكله الخاص لا تصبح صحيحة تماما الا حين نعكسها لنقول ان كل شكل يحمل مضمونه الخاص كذلك .

ليس يعني ذلك مطلقا الامتناع نهائيا عن استعمال أي شكل من الاشكال الثقافية السائدة ، بل على العكس يجب استغلالها أو الاستفادة منها ما أمكن ذلك ، لانها جزء من تراث الانسانية قبل أن تكون نتاج طبقة ومرحلة تاريخية معينة ، ولكن بشرط (أن نستعملها) حقا حتى لا تستعملنا أي أن نعيها جيدا كأداة ، وأن نستطيع تفسيرها علميا وأن نكتشف قوانينها الخاصة ، قبل أن نعبر من خلالها عن مضامينا ، أي باختصار أن نمتلكها جيدا بدل أن تمتلكنا كما هو واقع حاليا بالنسبة لاكثر المثقفين (المبدعين) العرب .

اذن لنبدأ أولا بنقد الاشكال قبل أن نبدأ بالتعبير بها ومن خلالها فهذه مهمة .

ولكن هذا الطرح ليس هو الوجه الوحيد في المسالة بل هناك ما هو اصح وأقرب وهو اشكال الادب الشعبي نفسها وبالاساس . اذا أردنا (نقدا في الممارسة) أي ابداع أدب وفن جديدين حقا في الساحة العربية نابعين من الشعب وصادرين اليه ، فلماذا لا نتجه اليه أولا ، مستمدين منه ليس مادة هذه الثقافة الجديدة بل اشكالها كذلك . وهذا هو الطبيعي لحل مجمل تلك التناقضات والمعادلات الصعبة السالفة ثقافة للشعب يجب أن تكون منه هو نفسه بكل مقوماتها والا فليست شعبية ولا جديدة .

هذه الطريق أبسط ما يعترضها الانفصال الصارخ والذي لا يزداد الا تباعدا بين المثقفين العرب وشعوبهم (الا استثناءات كثورة فلسطين) ، الى جانب ما كنا المحنا اليه من ظروف التعليم وشروطه الخاصة الطبقية وسواد وهيمنة قيم الثقافة والفكر البرجوازيين على أكثر مثقفينا .

يتضح اذن أننا لسنا فقط بعيدين عن خلق نماذج ثقافية جديدة ورائدة نابعة من الشعب واليه ، بل الاهم أننا ما زلنا لم نتصل على الاقل بهذه الثقافة الشعبية ونطلع عليها ونعرف كيف هي ، حقيقة ، وبالاخص لاننا نعرف تزييف الفلكلور وتشويهاته لجانب منها (المغشش في الادمغة) .

فما العمل اذن ؟ على الاقل ، وكمرحلة ، علينا تحطيم ذاك السور الصيني الزائف الذي يحول بين المثقفين وبين ثقافة شعبهم وان نبدأ في التعرف ، في الاطلاع ، في الكشف . . عن قيم ومقومات واصالة وأشكال . ثقافة شعوبنا وهذه مهمة ثانية .

ولنصعد درجا آخر ارقى في نقاشنا ، يلزم ابراز البناء الخلفي والرئيسي لهذه الاوجه من مشاكل (النقد في الممارسة) وغيرها مما لم يطرح . انه يمكن حتما في الممارسة اليومية للجماهير نفسها . ان ميدان (نقد في الممارسة) ثقافي لن يكون بالضبط سوى (نقد في الممارسة) نخوضه الجماهير الشعبية العربية بنفسها : باسلوبها وبقيادتها ولاهدافها الحقيقية .

ما لم تنهض الجماهير المغربية والعربية عموما بحركتها التاريخيـــة (الاشتراكية الوحدوية) وتمارس خطها الخاص بها ، فان خطها علـــى الصعيد الثقافي ، يبقى ـ ان لم نقل منعدما ـ ضعيفا وعارضا وجزئيا .

ان تجارب التاريخ ـ القريب والبعيد ـ هي أكبر دليل على هـــذه الحقيقة ، في الصين بثورتها الثقافية الاولى (اثناء المسيرة) والثانيـــة (64) ، وأدب وفن شعوب أوربا في الحرب الكبرى الثانية ، وحركـــة ماي 68 بفرنسا . . الخ وهذه الثورة الفلسطينية خلقت وما تزال مناخا وانتاجا ثقافيا مغايرا ، في الدرجة على الاقل ، لمناخ وثقافة البورجوازية السائدة في الوطن العربي ، وهو بشروط ضعفه ونواقصه حتى الآن يمثل مستوى حركة الجماهير الفلسطينية العربية التي ما تزال تتعثر . ان مجمل هذه الوضعية في الوطن العربي هو ما يفسر افتقاره حتى الآن أو اجهاضه لكل امكانية لخلق نماذج جيدة أدبية أو فنية ديمقراطية وشعبية حقا ، وهو ما يفسر كذلك تفاهة وسطحية وانعدام تاثير الانتاجات الثقافيـــة المنتشرة اليوم حتى بالنسبة لافضل نماذجها .

وباختصار ماذا تريد قوله ؟ في أسوأ الاحوال فانني لا أعود الى الصمت والتوقف عن أي محاولة للنقد عن طريق الابداع والتعبير ، لا ، ولكن فقط علينا الا ننخدع ونخدع أنفسنا وبعضنا بادعاء أنه في الامكان حاليا خلق نماذج ادبية أو فنية جديدة ورائدة بكل سهولة وفقط لان النية مبيتة على اقتحام هذا السبيل الذي تعترضه ـ كما اتضح ـ شتى السدود والعراقيل (التاريخية) والمرحليـــة .

وعلى كل من يحاول ذلك أن يكون واعيا تمام الوعي بكل تلك الشروط مهيئا بكل وسائل الثقافة العلمية وحصانة الاندماج وسط الجماهيـــر وممارستها النضالية والا وقع في الفخ البورجوازي المنصوب لكل السذج المعتمدين على (النيات) ممن يدعون (التقدمية الوطنية) .

وحتى نكون واضحين متفاهمين وحتى لا نقع مستقبلا في غرور ما نقول : بانه مهما تعددت هذه النماذج الجيدة المستكملة لكل ادواتهـــا وشروطها . . . فانها ستبقى جزئية عارضة غير شاملة بالضرورة لكل اشكال وصور التعبير المختلفة . فاذا كانت شعرا مثلا فمن للقصة وللرواية وللمسرحية واذا كانت لوحة فمن للموسيقى وللرقص وللغناء وللسينمـــا . . . الـــخ ستبقى جزيرة أو جزرا مضيئة حقا ولكنها وسط محيط مـــن الظلام أو الاضواء الباهتة الصادرة من ثقافة البورجوازية الصغرى (الثقافة الغيبية وثقافة الامبريالية) . هذا اذا لم نقع في اخطار من نوع الشعبوية المتهافتة المقدسة لكل شاذ صادر من شعب في غير مرحلة نهوضه أو انتاج فلكاوري مبتذل وشكلي مريض بارضاء النفسية البورجوازية (كما هو واقع بالنسبة لكثير من أدباء المغرب العربي المعبرين بالفرنسية أو الرسامين ورجال

المسرح والموسيقيين) .
انها ستبقى رهينة بشروط الاوضاع الراهنة ما لم تتغير تلك الشروط بنهضة جماهيرية كما أسلفنا ، تنهض معها شروط ثقافة جديدة تقوم بنقد ثقافي حقيقي من خلال ممارسة ثقافة جديدة وشعبية حقيقية .

ب) تبقى اذن مهمة النقد المبدئي والادبي امام مثل هذه الصعوبات المرحلية ، ومساهمة في حلها وتجاوزها ، مهمة تكتسي صبغة الاولوية والالحاح في المرحلة الراهنة على الاقل ، ولكن هذه هي الاخرى كذلك ما زال مطروحا عليها مشاكل (أقل من السابقة على كل حال) عليها أن تحلها بدءا وقبل الشروع في هذا النقد .

واول هذه المشاكل واكبرها هو مشكل المصطلح النقدي أو بصورة أعرض : مشكل مناهج النقد المطروحة واختيار أصلحها .

هذان المشكلان ليسا في التحليل الاخير سوى مشكل ايديولوجي ـ فلسفي ، ان كل مصطلح أو منهج يحمل في احشائه حتما خلفية فكرية تختصر نفسها ورؤيتها وتحليلها من خلال المصطلح النقدي والمنهج الذي يلائمه ويستعمل في اطاره ويتبادل الخدمة معه . فيستحيل فهم كل نقد أو منهج نقدي الى فهم لمصطلحاته نفسها أي أدواته وعلامات مروره ان شئنا القول كل نقد يختص نفسه في المصطلح النقدي ، وكل مصطلح نقدي لا يتعدى كونه المجيب أو أداة الاجابة على السؤال الذي يطرحه مسبقا أي منهج نقدي قبل البدء في الجواب عليه من خلال دراسة أو تحليل المادة المطروحة عليه للنقد .

كل نقد هو رد فعل اجتماعي ـ ثقافي ، لعطاء فردي معبر بالضرورة عن جماعة وعن مرحلة . وهذا النقد ـ الرد لابد أن يطبع الطبقة الاجتماعية التي يصدر منها واليها والتي لا يتجاوز الناقد ـ أيا كان ـ كونه أداتها المطيعة في هذا الرد وبهذا الشكل أو ذلك .

ويمكن ـ نظريا ـ تمييز نوعين من مناهج النقد الممكنة ، من خلال السؤال الذي يطرحه على نفسه كل منهج نقدي . وهناك من جهة منهج يحاول الاجابة عن سؤال كيف ؟ (وهو السائد عندنا غالبا) وآخر عن سؤال لماذا ؟ (وهو ما نحن أحوج اليه) .

ان مناهج البحث عن الكيف وليس عن اللماذا تنطلق بدءا بقبول المعطى على المستوى الفكري والتاريخي ، ولا تبحث عن سؤال لماذا كان كذلك ولم يكن غيره بل عن كيف هو وحسب . منهج تبريري منذ المنطلق مهما كانت نتائج أحكام ذلك الناقد قابلة أو رافضة ، مادحة أو شامتة أو محايدة مدعية موضوعية ووسطية فجة .

هذا المنهج مهما تعددت سبله وادواته (نفسي ـ اجتماعي ـ فلسفي ـ جمالي ـ لغوي) يلتقي في نتيجة واحدة : تحليل شكلي ـ تعقيدات تفسيرية

وتأويلية تبريرية ، حتى اذا كان ذلك النقد يدعى فقط محاولة الفهم والتفسير والتبسيط أو على العكس نقد المادة الثقافية على أساس مخالفتها للاصول والاعراف الثقافية ، يبقى رغم ذلك ـ أو بسببه ـ متمما فقط ومكملا لذلك العطاء الثقافي وليس رد فعل حقيقي لـــه .

هذا المنهج هو المنهج البرجوازي ـ الاصلاحي المكيف المشذب لكـــل العطاءات مهما كانت تقدمية لارجاعها الى الوضع وتكييفها ـ قسرا ـ معه وهو السائد عندنا بصفة غالبة . وهو ما انتج له كثيرا من مصطلحات النقد الزائفة المبررة التي تستعمل للبحث في كل شيء ولا تبحث عن شيء فـــي الاخير . هذه المصطلحات ـ الادوات هي ما يجب رفضه وهذا النقد هو ما يجب نقده ، انه واجب نقد النقد كمهمة .

المنهج الثاني منهج اللماذا لا يطرح حقا منهج البحث في الكيف نهائيا . ولكنه لا يستعمله للدوران في فراغ الجدال وهدف التكييف ، بل كمساعد فقط للجواب عن السؤال الرئيسي ، دائما . وهو لماذا كان هذا العطاء (أي عطاء) هكذا ولم يكن غيره . هذا السؤال وطرحه يحملان بحد ذاتهما امكانية الرفض ، بل وفكر التغيير ، حول شكل الثقافة في العالم العربي . قد تصل مع أي مثقف بورجوازي الى أنها متخلفة غير فاعلة وتحمل كثيرا من آثار الاقطاع والاستعمار ، وهي مكبوتة وغير متحررة . . . الخ ولكنه يقف معك عند هذا الحد ولا يستطيع تجاوزه ، لانه الى هذا الحد يكون قد أجاب عن سؤال كيف . أما لماذا كانت هذه الثقافة كذلك ولم تكن غير ذلك ، فهذا يضطره الى الرجوع للتاريخ ، والتاريخ العادي وليست الميتافيزيقي ، والى الواقع الاجتماعي والتاريخي ، وليد الصراع الطبقي في المجتمع .

هذا المنهج ، هو المنهج التقدمي الجدلي والفعال ، الذي يعيد خلق العطاء ، ويبدعه من جديد عن طريق اعطائه مدلوله التاريخي الحق ، وموقعه الاجتماعي التاريخي ، في حياة الناس العملية ، هذا المنهج في النقد يعتصم بالتاريخ كأداة رئيسية له في التحليل ، والحكم بدل خزعبلات علوم النفس والاجتماع و . . . من أدوات الرأسمالية لتكييف الانسان لمجتمعاتها ونظمها القهرية الاستلابية ، وهو ما نحن في أشد الحاجة اليه في المرحلة الراهنة ، وكل المراحل بعدها . انه المنهج الذي يحاول التقدم بنا أماما بدل الالتفات الى الوراء ، أو النكوص عن الواقع ـ اي واقع ـ ومنه الثقافي ، نبحث فيه عن كيف هو ، بينما المطروح هو اكتشاف قانونه يطرح سؤال لماذا هو كذلك ، من أجل تجاوزه ، والتطلع الى آفاق أصح وأفضل .

الكيف يقصر حركتنا عند الواقع (أشكاله ، ظروفه ، تلويناته . . .) بينما اللماذا تتجاوز بنا الواقع ، مستشرفين آفاقا أخرى أبدع وأحسن .

هذا النقد الجديد يحتاج الى مصطلحات نقدية جديدة سنخلقها حالما نقتنع بمسؤوليتنا في انجازه ، وهذه مهمة أخرى .

اقول هذا حتى لا ننخدع (مرة أخرى) فنحاول ممارسة نقد جديد حقا ، بنفس أدوات ومصطلحات النقد التبريري السائد ، انه عين الوهم والانتقائية على الصعيد الثقافي ، ان للمصطلحات استقلالها الذاتي المكتسب من محتوياتها الفكرية الخاصة بها ، وكل من يحاول استعمالها ـ دون وعي ذلك ـ لابد واقع في تحقيق أهداف تتجاوز مقصوده ، فيصبح خادما ممتلكا لمصطلحات (ـه) بدل العكس ، كما هو مفروض ، والذي لن يتحقق سوى بوعي المصطلح . أي (بنقده) ، وبهذا وحده اي بنقد المصطلح نفسه ، نكون قد أبدعنا مصطلحا جديد وخلقناه خلقـــا .

كل هذا لن ينسيني لحظة أن كل هذه الوسائل يبقى حلها مرتهنا الى حد كبير بتقدم وتطوير ممارسة النقد السياسي التقدمي نفسه ، أي الارضية الضرورية واللازمة لنقد ثقافي جديد حقا . ان أي منهج في النقد يدعي الجدة لابد له من الارتباط بنقد سياسي جديد حقا ، ولن يكون أي مصطلح نقدي جديد سوى وليد المصطلح النقدي السياسي الجديد هو الآخر . وحقل كل هذه الثمار والازهار المرجوة سيبقى دوما هو نضالات وتقدم نضالات الجماهير العربية ، ومدى ما تصل اليه من النضج والنهوض والاستقلال .

لا أعود ـ مرة أخرى ـ الى النكوص ، والتوقف حتى نهضة الجماهير هذه ، أبدا ، فالجماهير العربية دائما تتحرك . وضرورة محايثة وخدمة كل الياديين لبعضها البعض ـ ومنها الثقافي ـ ضرورة لا ينكرها أحد . فالنضال الثقافي يخدم نضال الجماهير ، ويضيئه كما العكس ، ولكن فقط أن نكون واعين بحدود كل نضال ثقافي وآفاقه على المدى البعيد ، حتى لا نخل بالتوازن ونخطيء ترتيب الاسبقيات ، ونقع في ممارسات ثقافية خاطئة ، رغم واجهتها التقدمية التي قد ينطلي عليها الوهم .

8) ـ من أجل انجاز جملة هذه المهام وغيرها ، لا يمكن مطلقا الاكتفاء بالمجهودات والاجتهادات الفردية العارضة والجزئية وحسب المزاج ، بـل لابد من تنظيم الارادات الفردية الوطنية الخلاقة ، وتكتيلها وفق برنامج وخطط ثقافية متقدمة ونضاليـــة .

ان هذا الشرط المادي لعمل ثقافي جدي وفعال يعتبر مبدئيا في هذه المرحلة وكل المراحل بعدها ، وعدم الاهتمام به لن يؤثر سوى في المسيرة الثقافية النضالية نفسهـــا .

هذه الكتلة الثقافية المتقدمة والتقدمية بالنسبة لجملة الكتل الثقافية الحاصلة اليوم ستعمل ـ الى جانب مهمتها في المواجهة والنقد وابـــداع النموذج الجديـد ـ على تجميـع شتات المثقفين الوطنيين والتقدميين ، المبعثرين حاليا أو حتى المستلبين من طرف شتى أجهزة الثقافة الاستعمارية الاقطاعية أو البورجوازية باغراءاتها المادية الوفيرة . . .

واذن فعلينا أن لا نتردد ، في هذه المرحلة من تاريخ ثقافتنا الوطنية في

العمل على تهييء كل الشروط والوسائل والجسور ... التي ستصلنا ببعضنا البعض ، كل الميادين الوطنية التي يمكن أن يلتقي حولها المثقفون الوطنيون المخلصون من أجل عمل انقاذي ونقدي ووطني ، جميع الحبال التي يمكن ان تربط ارادات التقدم والتحرر من المثقفين الى بعضهم ، علينا ان نمدها ونمتن من نسجها وقوتهـــــا .

ان فرص كل ذلك مازالت متحققة ، فعلينا أن لا نترك للزمن تنفيذ قوانينه الخاصة والبطيئة ، علينا ان نحوله هو الآخر الى أداة من أدوات العمل من أجل انجاز هذه الشروط والاهداف الوطنية .

اذن . . فلنبـــــدأ . ٪